تحت القشّ

تأليف: نجاة الصليبي الطويل
رسم: ساندرا غصن

«لِمَ هَذِهِ الأصْوات؟ التَّغاريدُ تُلْهي عَنِ العَمَل». إنَّها المَدينَةُ الجادَّة.

«ما مِنْ ضَرورةٍ لِلَّهْو، يَجِبُ إلْغاءُ العَصافير». قَرارُ قاسٍ اتَّخَذَهُ المَلِكُ الَّذي كانَ يَكْرَهُ زَقْزَقَةَ العَصافيرِ ويَغْضَبُ لِرؤْيَتِها حُرَّةً وفَرِحَةً. كانَ يَصْرُخُ كُلَّما رَأى عُصْفورًا: «أُنْظُروا إلى لامُبالاتِه! أُنْظُروا إلى سُخْفِه! إنَّهُ يُعْطي المَثَلَ السَّيِّئَ لِلأطْفال. أزيلوهُ مِنْ أمامي أبْعِدوه».

قُلْتُ: «لا عاطِلينَ عَنِ العَمَلِ في هَذِهِ المَدينَة! يَعْني لا عَصافير!».

تَجمَّعَ الصَّيادون، وانْقَلَبَ أبْسَطُ مُواطِنٍ إلى صَيّادٍ مَعَ بارودَةٍ حَتّى تَحَوَّلَتِ المَدينَةُ بِكامِلِها إلى رِجالٍ مُدَجَّجينَ بِالبارودِ والسِّلاح. حَتّى الأطْفالُ أخَذوا الدِّبْقَ* والبَحْصَ وخَرَجوا. إنَّها لُعْبَةٌ وأيّامُ عُطْلَةٍ، والعَصافيرُ كَثيرَةٌ. تَحَدٍّ كَبيرٌ سَيُمَكِّنُهُم مِنْ قَتْلِ الطُّيورِ البَريئَة.

مَنْ يَقْدِرُ عَلَيْها كُلِّها؟ لَمْ يُصَدِّقْ «زُهَيْر» أنَّهُم سَيَتَمَكَّنونَ مِنْها كُلِّها. مُسْتَحيل

لَمْ يَعُدْ مُمْكِنًا سَماعُ زَقْزَقاتِ العَصافير! طاقْ طاقْ طاقْ طَوالَ النَّهار.

*الدِّبْق: مادَّةٌ لَزِجَةٌ لاصِقَةٌ.

وكَوْماتٌ مِنَ العَصافيرِ تُرْمَى بِالرَّفْشِ إلى الأنْهارِ أوْ تُطْمَرُ بِالتُّراب. يَضْحَكُ المُتَفَرِّجونَ ويَنْفُخونَ صُدورَهم فَخْرًا. وبَعْضُ الأوْلادِ يَنْظُرونَ إلى آبائِهِم عَجَبًا.

مَناقيرُ العَصافيرِ مُغْلَقَةٌ ورُؤوسُها مُلْتَوِيَةٌ وأجْنِحَتُها مِنْ دونِ حَراكٍ، ذَوَتْ تَحْتَ وَطْأةِ السِّلاح.

كانَ «زُهَيْر» حَزينًا ويُخَبِّئُ كُلَّ بَيْضةٍ يَجِدُها كَأنَّها كَنْزٌ ثَمينٌ. يَدْفِنُها تَحْتَ القَشِّ الدّافِئِ في زاوِيَةٍ مِنْ قِنِّ الدَّجاج، يَصِلُ إلَيْهِ عَبْرَ الإصْطَبْل. فَرِحَ وَالِدُه لِحُبِّهِ الجَديدِ لِلأحْصِنَةِ وتَنَبَّأَ لَهُ بِمُسْتَقْبَلٍ عَظيمٍ.

سَيَخْدِمُ المَلِكَ جَيِّدًا بِتَفَهُّمِهِ لِلحِصانِ وتَعامُلِهِ السَّلِسِ مَعَه. ولَمْ يَفْقَهْ سِرَّ «زُهَيْر».

كانَ كُلُّ شَيْءٍ يَدورُ حَوْلَ المَلِكِ وآرائِهِ وتَمَنِّياتِه. يَسْعى الجَميعُ إلى إرْضائِهِ وإلى الرِّبْحِ والجاهِ والسُّلْطَة. إنْ رَضِيَ المَلِكُ عَلى أحَدِهِم «اغْتَنى لِوَلَدِ الوَلَد» حَسْبما كانَتْ تَتَناقَلُهُ وتُكَرِّرُهُ الجَدّات.

إلّا «زُهَيْر»؛ فَإنَّهُ لَمْ يُفَكِّرْ أوْ يَأْبَهْ يَوْمًا لِلمَلِك. يُحِبُّ الأحْصِنَةَ ويُداعِبُها ويَتَنَزَّهُ عَلَيْها ويَخْدِمُها بِفَرَحٍ. يَوَدُّ مُساعَدَةَ والِدِهِ والإفادَةَ مِنَ الوَقْتِ لِأنَّ «الوَقْتَ مِنْ ذَهَب». إنَّما هَمُّهُ الأوَّلُ كانَ مَحْصورًا بِالعَصافير. وكانَ يُفَكِّرُ لِمَ يُضَيِّعُ الجَميعُ وَقْتَهُم في مُلاحَقَةِ العَصافير؟ ماذا فَعَلَتْ تِلْكَ المِسْكينَة؟ كَيْفَ تَكونُ المَدْرَسَةُ وأشْجارُها بِلا عَصافير؟ وتِلْكَ الأعْشاشُ الجَميلةُ لَنْ يَراها بَعْدَ اليَوْم؟ سَيَحْتَفِظُ عَلى الأقَلِّ بِبَعْضٍ منها.

كانَ يَسْتَفيقُ مَعَ بُزوغِ الشَّمْسِ ويَهْرَعُ إلى الحَقْلِ يَتَسَلَّقُ الأشْجارَ ويَبْحَثُ بَيْنَ أغْصانِها الخَفِيَّة. وهَكَذا، أصْبَحَ لَدَيْهِ مَجْموعَةٌ مِنَ الأعْشاشِ مَليئَةٌ بِبَيْضِ العَصافير. هَذا سِرُّه، لَنْ يَعْرِفَهُ أحَدٌ ولَيْسَ لِلأعْشاشِ أفْواهٌ لِتَتَكَلَّم.

بَعْدَ أرْبعَةِ أيّامٍ قُضِيَ الأمْر، وارْتاحَتِ المَدينَةُ وفَرِحَ المَلِكُ لِتَحْقيقِ أُمْنِيَتِه. لا يَسْمَعُ الآنَ زَقْزَقَةً واحِدَةً.

وخُصِّصَ أوَّلُ أيّامِ الخَريفِ يَوْمَ عُطْلَةٍ احْتِفاءً بِهَذا الإنْجاز. سَيَكونُ عيدًا واحْتِفالًا رَسْمِيًّا، يَضْحى النّاسُ فيهِ لِذِكْرى العَصافيرِ المَيْتَة، ولَوْ كانوا يَبْقونَ واجِمينَ سِنينَ طَويلةً بِكامِلِها مُفْتَقِدينَ سَماعَ عُصْفورٍ يُغَرِّد.

كلَّ يَوْمٍ، كانَ «زُهَيْر» يَتَفَقَّدُ زاوِيَتَهُ السِّرِّيَّةَ في قِنِّ الدَّجاجِ خِلْسَةً حَيْثُ أمَّنَ والِدُهُ الكَثيرَ مِنَ الضَّوْءِ والدِّفْءِ الأساسِيَّيْنِ في عَمَلِيَّةِ تَكاثُرِ الطُّيور. وكانَ قَدْ دَفَنَ بَيْضَ العَصافيرِ تَحْتَ طَبَقَةٍ كَثيفَةٍ مِنَ القَشّ.

ويَضْحَكُ عِندَما يَرى الدَّجاجاتِ «قاعِدةً»، قابِعةً فَوْقَ مَجْموعَةٍ مِنَ البَيْضِ وكَأنَّها تَحْمي أكْثَرَ فَأكْثَرَ بُيوضَ العَصافيرِ المَطْمورَةَ تَحْتَها؛ ويَقولُ في نَفْسِه: «إنَّها تَفْهَمُ بِالتَّأْكيدِ ما أفْعَل، وتُبارِكُ سِرِّي. فَهِيَ تَعْرِفُ طَبْعًا الفارِقَ بَيْنَ صَوْتِها وصَوْتِ العَصافيرِ وتُفَضِّلُ الزَّقْزَقات. وهِيَ تُسانِدُهُ طَبْعًا، كَما إنَّها تَفْتَقِدُ العَصافِيرَ مِنْ دونِ شَكٍّ.

رُبَّما كانَتْ تَجْلِسُ جَزَعًا ورُعْبًا مِنَ المَلِك؛ لا تُريدُ أنْ يَراها أوْ يَسْمعَها أوْ أنْ يَنْزَعِجَ مِنْها». ولَمْ يُرِدْ «زُهَيْر» الاعْتِرافَ بِالواقِع، وهُوَ ضَرُورَةُ حَضْنِ الدَّجاجاتِ لِبُيوضِها لِتَفْقيسِ الصّيصان.

ذاتَ يَوْمٍ، كانَ الجَميعُ قَدْ عادوا إلى العَمَلِ والصَّمْتُ الكَئيبُ يَسودُ المَكان، سُمِعَ صَوْتٌ غَريبٌ وعَميقٌ آتٍ مِنْ مَزْرَعَةِ والِدِ «زُهَيْر». لَيْسَ صَهيلًا ولا نَهيقًا ولا نَقيقًا ولا...

وَجَمَ الجَميعُ لِلَحْظَةٍ وكَأنَّ الطَّيْرَ عَلى رُؤوسِهِم ثُمَّ عاوَدوا العَمَلَ بِسُرْعَةٍ وجِدِّيَّةٍ غَيْرَ آبِهين، إلّا «زُهَيْر» فَقَدِ احْمَرَّتْ وَجْنَتاهُ وذُهِل، وتَسَمَّرَتْ عَيْناهُ في الأرْضِ وأخَذَ قَلْبُهُ يَطْرُقُ بِسُرْعَةٍ وبِقُوَّةٍ.

ارْتاحَ عِندَما رَأى الجَميعَ يَعودونَ إلى العَمَل. انْتَظَرَ المَساء كَمْ هُوَ صَعْبُ الانْتِظار! ساعاتٌ قَليلَةٌ بَدَتْ لَهُ وكَأنَّها سُنون.

عِنْدَ المَساء، رَكَضَ «زُهَيْر» نَحْوَ زاويَتِهِ فَرَآها تَتَحَرَّكُ وأصْواتٌ غَيْرُ مَعْهودَةٍ تَصْدُرُ عَنْها. فَاقْتَرَبَ ورَأى الزَّغاليلَ الجَميلَة. مَناقيرُ صَغيرَةٌ تَنْفَتِحُ وتُغْلَقُ كَأنَّها تَلْهو أوْ تُحاوِلُ أنْ تَتَكَلَّمَ

كانَتِ الدَّجاجاتُ تَحومُ حَوْلَها وتُعْطيها دودَةً صَغيرَةً أوْ حَبَّةً مَكْسورَةً ومَهْروسَةً في مِناقِرِها. ما هَذِهِ الخَلِيَّةُ الجَميلَة!

إنَّها الزَّغاليلُ بِزَغَبِها الدّافِئِ ولَوْنِها الفاتِحِ الجَميل. ما أجْمَلَها! ما أصْغَرَها! كَمْ هِيَ بَريئَةٌ! كَمْ هِيَ نَظيفَةٌ! إنَّها تَضِجُّ بِالحَياةِ مُفْعَمَةً بِالحُبِّ وبِالحَماسَة. أخَذَ إحْداها بَيْنَ راحَتَيْهِ وانْتَبَهَ لِلدَّجاجاتِ تَتَحَلَّقُ حَوْلَهُ وتَقِفُ بَيْنَ رِجْلَيْهِ تَنْتَظِرُ أنْ يُعيدَها إلى مَكانِها. كَمْ هِيَ عَطوفَةٌ الحَيَواناتُ وكَمْ هُوَ ظالِمٌ الإنْسان! وما أقَلَّ ذَوْقَه!

أيُعْقَلُ أنْ يَسْتَغْنِيَ عَنْ هَذِهِ الطُّيورِ الجَميلَةِ ويُحْرِمَ نَفْسَهُ والطَّبيعةَ مِنْ هَذا الاحْتِفالِ الدّائِم؟

حَضَنَ «زُهَيْر» العَصافيرَ واعْتَنى بِها وأخْفاها جَيِّدًا. ومَعَ الأيّام، شَعَرَ أهالي المَدينَةِ بِتَعاسَةِ حَياتِهِم وبِالصَّمْتِ المُطْبَقِ عَلَيْها، أخَذوا يُقَلِّدونَ زَقْزَقَةَ العَصافيرِ ويُصَفِّرونَ بِما أُوتوا مِنْ قُوَّةٍ ونَفَسٍ عَميقٍ. لَنْ يَسْتَطيعَ المَلِكُ إلْغاءَ أصْواتِهِم أيْضًا وإنْ كانَتْ شاذَّةً.

لاحَظَ الجَميعُ ظاهِرَةً غَريبَةً، وهِيَ تَفَشّي نَوْعٍ مِنَ الدّيدانِ يَنْقُلُ الأمْراضَ الجِلْدِيَّةَ ويَأْتي عَلى بَراعِمِ الزُّهورِ وبِخاصَّةٍ زَهْرُ الفاكِهَة. وبَعْدَ التَّفْكير، وَجَدَ الحُكَماءُ السَّبَبَ وهُوَ غِيابُ العَصافيرِ الَّتي تَقْتُلُ تِلكَ الدّيدانَ وتَتَغَذّى بِها. اسْتَنْتَجَ الجَميعُ أهَمِّيَّةَ وُجودِ العَناصِرِ الطَّبيعِيَّةِ كُلِّها الَّتي لا يُمْكِنُ الإخْلالُ بِنِظامِها وتَكامُلِها.

نَدِمَ المَلِكُ عَلى إلْغاءِ تَغْريدِ العَصافيرِ وأسِفَ لِتَهَوُّرِه، وراحَ يُفَكِّرُ ويَبْحَثُ عَنْ وَسيلَةٍ تُعيدُ الطُّيورَ الصَّغيرَةَ والمَرِحَةَ إلى عالَمِه. وَعَدَ بِجائِزةٍ كَبيرَةٍ لِمَنْ يُسافِرُ ويُعيدُها أوْ لِمَنْ يَجِدُ طَريقةً لِجَذْبِها وإيوائِها.

ومَنْ أحْرى بِها مِنْ «زُهَيْر»؟ فَقَدْ سَبَقَ الآخَرينَ وكانَ أكْثَرَ عَطْفًا، ذَوْقًا، ذَكاءً وتَخْطيطًا مِنَ الكِبار. أطْلَقَ في الجَوِّ عائِلَتَهِ مِنَ العَصافير، فَمَلَأتِ الدُّنْيا فَرَحًا وحَرَكةً. عَمَّتِ الحَياةُ المَدينَةَ وعادَ الضَّحِك، اللَّعِب، الهزَجُ والمَرَح.

وأحَسَّ الجَميعُ بِسُخفِ فِعْلَتِهِم السّابِقَةِ وبِطاقَةٍ أقْوى لِلعَمَل. فَلِكُلِّ شَيْءٍ وَقْتُه. وفَهِموا أنَّ المَدينَةَ الجادَّةَ تَسْتَطيعُ أنْ تَمْرَحَ وتَلْهُوَ وَقْتَ الرّاحَة. حاوَلوا التَّعويضَ عَمّا اقْتَرَفوا، فَحَضَّروا الأماكِنَ المُواتِيَةَ لِلعَصافيرِ والحُبوبَ المُناسِبَةَ لِتَغْذِيَتِهِم. لَمْ يَغْفَلْ «زُهَيْر» أنْ يَقْتَرِحَ عَلى المَلِكِ تَشْكيلَ لِجْنَةٍ اسْتِشارِيَّةٍ جَريئَةٍ تُعاوِنُهُ في اتِّخاذِ القَراراتِ الصَّعْبَة. فَوَعَدَهُ خَيْرًا وأغْدَقَهُ بِالمال.

أيْقَنَ الجَميعُ أنَّهُ لَيْسَ بِمَقْدورِ أحَدٍ أنْ يُلغِيَ أُسُسَ الطَّبيعَةِ أوْ أنْ يَقْلِبَ مَقاييسَها، وإنَّ الصَّوْتَ كَالحَياةِ لا يُقْهَر؛ وما أجْمَلَ وأطْرَبَ موسيقى العَصافير!